عاصمة محافظة ريمةِ المتوّجة بالضباب..

الجبين

الصعود باتجاه النجوم على جواد الدهشة!!

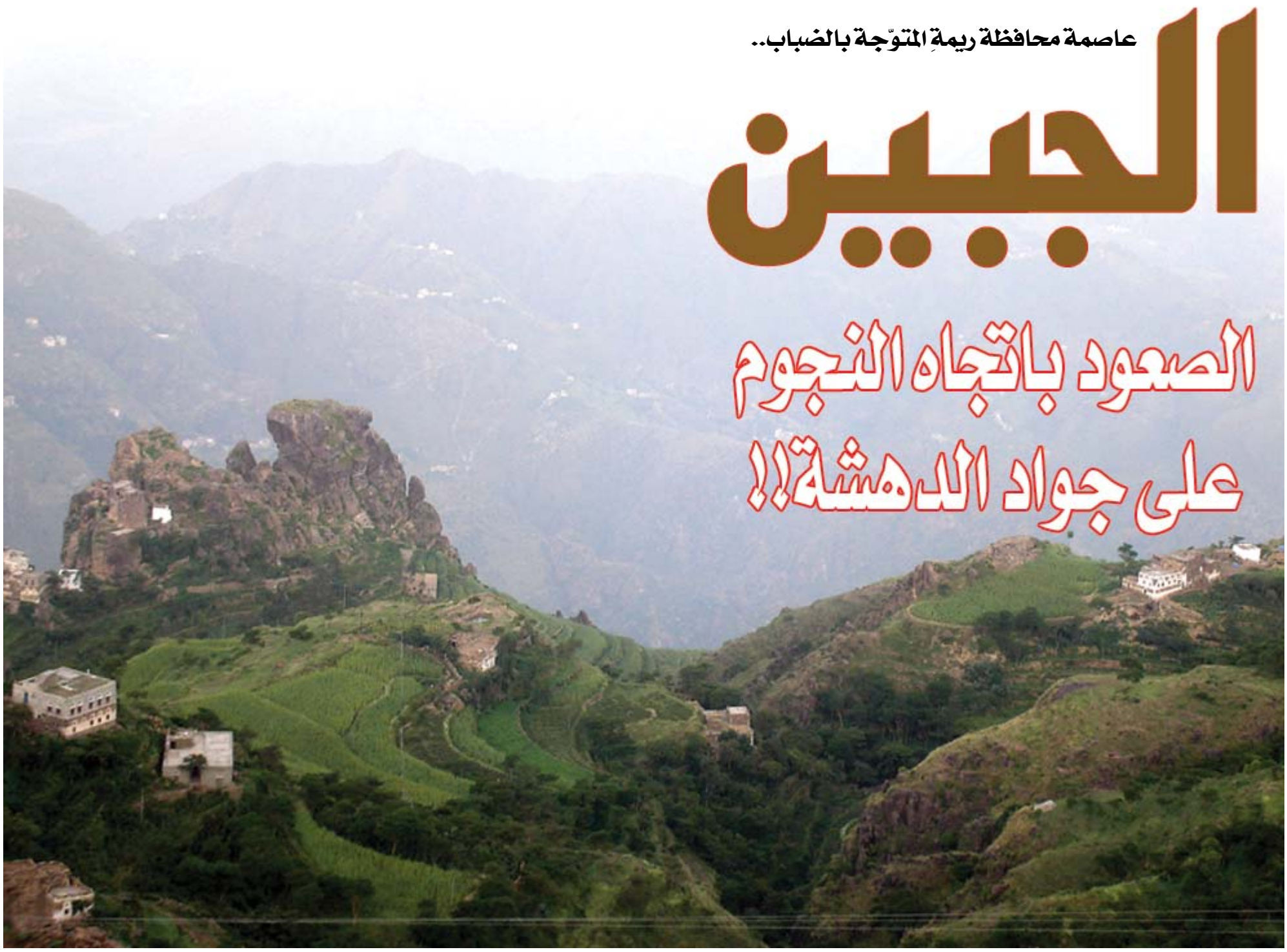

● .. كانت الساعة تشيرُ إلى السادسة مساءً قبل غروب شمس ذلك النهار الذي لايزال محفوراً بذاكرتي وأنا أغادرُ مدينة الحديدة عروس البحر الأحمر باتجاه الجبال الشرقية المط ّلة على سهل تهامة وأعني بالتحديد جبال ريمة الشماء يحضُني قلقٌ غريبٌ معجونٌ برغبةٍ عارمة لاكتشاف هذه المحافظة الفتيّة ورؤية جبالها الشامخة التي تردّدتْ على الألسُن كثيراً بفضل شدو فتانِ اليمن الكبير أيوب طارش عبسي باسمها في أغنية شاعر اليمن الكبير المرحوم إبراهيم الحضراني التي يقول فيها: عانقي يا جبال ريمة شماريخ شمسان.
وكانت البداية مِن مدينة المنصورية التي تقع شرق مدينة الحديدة على طريق المسافرين إلى جبال بُرَع أو جبال ريمة على السواء فضلاً عن قربها مِن مدينة السُخنة المشهورة بحمّاماتِها الكبريتية الساخنة التي يقصدها الناس للاستشفاء مِن كل مكان في عموم محافظات الجمهورية.

استطلاع وتصوير/ فايز محيي الدين البخاري

* من مدينة المنصورية انطلقتْ بنا السيّارة صوبَ النجوم أقصدُ صوب مدينة الجبين عاصمة محافظة ريمة وعند أسفلِ الجبل الذي كان علينا أنْ نتسلّقَهُ بالسيّارة حبواً بسبب أنّ الظلام كان قد حلّ وداهمنا ونحن في أولى عَتبات ذلك الجبل الشامخ وبالتحديد في سوق ومنطقة رباط النهاري التي تستلقي عند أقدام ذلك الجبل المهيب في دعة تامّة آمنة بأنّها تعيش في حماهُ وتنعم بأبوّته الصادقة وهُو يحنو عليها من جهة الشرق ويقف على مشارفِهَا ليلاً ونهاراً كالحارس الأمينْ.
غادرنا رباط النهاري بعد أنْ أسدلَ الظلامُ ستارهُ ونشرَ الضباب حدائلَهُ لنصعد بعدها جبلاً يُخيّلُ للرائي ليلاً وهو يتسلّقَهُ أنّهُ يصعد باتّجاه الغيم وأنّهُ فعلاً في طريقه لملامسة النجوم حيثُ تبدو أنّهَا بمحاذاة ذلك الجبل الذي نريد الصعود إليه ناهيك عن أنّ القُرى المُعلّقة على جنبات جبال الجبين الغربية تبدو وكأنّها مسبحة من نجوم انتثرتْ على ضفاف تلك الجبال لتهمس في أذن تلك الطبيعة البكر محيّية لها وقد اختصتْها من بين كل جبال اليمن بذلك العنَاق الحميم على ضفاف سهل تهامة الفسيح.

موقع فريد

* كُنّا نصعد ونصعد وتلك النجوم تبتعد رويداً رويداً عن ناصية جبال الجبين فيما النجوم الصناعية؛أقصد بها مصابيح الكهرباء في تلك القُرى المنتشرة على جنبات الجبل لاتزال تستقبلنا ثمّ تودّعنا سريعاً بعد أنْ نتجاوزها صعوداً نحو الأعلى.
فيما المدرجات الزراعية التي تزرع البُن تحفُنا من كل جانب وهي تدلُّ على كفاح الإنسان اليمني الذي استطَاع تطويع الطبيعة لصالحه وقهر بجُهده أعتى الصعاب.
كانتْ ليلةً مُثيرةً وأنا أقتربُ من السماء وأُحلّقُ كالنسرِ بشموخ وإباء على سهل تهامةَ ومدَنه العديدة..
وكان يزيد مِنْ عظَمة المكان رؤيتنا لمدينة الحديدة التي بدتْ عند نهاية الأفق متلألئةً كمزهرية من الكريستال المتوهّج.
فضلاً عن رؤية سهل تهامة وقد خلَدَ إلى نومه مبكّراً فيما لاتزال جفونَنا معلّقة بتلك النجوم التي تحتُ السيرَ باتجاهها عسى نلامسها أو تكتحل بها عيوننا حين نراها لأوّل مرّة وقد اقتربتُ منّا بشكل لن نراهُ في مكان آخر.
ومن محاسن الصُدف أنّ الضبابَ كان قد غادرَ تلك الجهات سريعاً فأفسح لنا – مشكوراً – مساحةً شاسعة للرؤية وللتأمل في طبيعة تلك البلاد الساحرة وللاستمتاع بذلك الأفق الذي لم نرَ أفقاً بسعته من قبلُ أبدا.
كانت السيّارة تقتربُ من مدينة الجبين وحين وصلناها عرفنا لماذا أطلق عليهَا الأوائل ممن سكنوها في وقت مُبكّر اسم الجبين فهي والله بموقعها ذلك الفريد تُمثّلُ جبين جبال ريمة الشماء وناصيتها الناصعة بالبهاء والمكسوّة بالرهبة والعظمة في آنٍ معاً.

محافظة وليدة

* في الجبين كان كل شيءٍ ينم عنْ أنّك في قرية وليس في مدينة، فالكهرباء تنامُ فيها مبكراً إلاّ في بعض البيوت والأماكن التي توصف بالحكومية والعامة ومساحتها لا تعدو عن كونها قرية من القرى المتوسّطة حسب ما نعرف من قُرى في محافظة إب أو تعز أو ذمار فهي ليستْ كبيرة بالشكل الذي تبدو عليه بعض قرى المناطق الوسطى وليستْ بالشكل الذي كنّا نتصوّره حين قصدنا عاصمة محافظة!!
كان كل ما في الجبينْ ساكناً والمكان يلفُّه السكون من كل جهة ورغم استوحاش البعض من ذلك الجو بعد معايشتَهم لأجواء المدينة الصاخبة إلاّ أنّني كنْتُ في غاية المتعة وأنا أتعايش مع بيئة ولُدتْ من رحمها وكانت الحاضنة الأولى لطفولتي ولا أقصدُ هَنا منْطقة الجبينْ أو ريمة وإنّما البيئة الريفية التي آتيتُ منها في قلب محافظة إب الخضراء وهي تتشابهُ كثيراً مع طبيعة البيئة والتضاريس في محافظة ريمة.
بحثنا عن فندق فلم نجد إلاّ بيوت قيل لنا أنّها تحوّلتْ بقدرة قادر عشية إعلان ريمة محافظة عام ٢٠٠٤م إلى فنادق ومقرات حكومية بعد أنْ آجرَها أصحابها كمرافق حكومية بأغلى الأثمان وهاجروا إلى المدن الكبيرة كأمانة العاصمة ومدينة الحديدة، مستفيدين من ريع تلك البيوت باهظة الثمن وفي الوقت نفسه أسهموا في حل مشكلة المباني التي ستحتضنُ المكاتب والمرافق الحكومية لهذه المحافظة الوليدة وبذلك اصطادوا عصفورين بحجرٍ واحد.

مدينة الغيم

* بعد وقفة ارتباك من ذلك الواقع غير المتوقّع سألنا صاحب دُكّان كان لا يزال فاتحاً عن مكانٍ ناوي إليه وكنتُ أتوقّع أنّهُ سيشير علينا لمكان أو نُزُل قديم مِن تلك التي كان يأوي إليها المسافرون في عهودٍ سالفةٍ والتي كانتْ تُسمى (سماسر) لكن الحظ كان إلى جانبنا وأشار علينا إلى البيت الذي يقع دكّانه أسفل منه وحين صعدنا ذلك البيت وجدنا مَن يستقبلنا ويقول:حظكم عندنا غرفة لوكس!
وعند دخولنا تلك الغرفة وجدناها بفراشها المهلهل وبنائها العتيق تمتد إلى قبل حوالي خمسة عقود من الزمن.. ولجنا إليها ونحن نحمد الله الذي مَنّ علينا بذلك المكان الذي سيأوي أجسادنا المنهكة من صعود ذلك الجبل المهيب وفي الصباح كُنّا مع موعد هو الأجمل على الإطلاق في تلك الرحلة وقد كان كفيلاً بأنْ يُنسينا كل المتاعب التي واجهتْنا في طريق الصعود نحو مدينة الغيم (الجبين).
فتحنا النوافذ على إشراقة الشمس الأولى التي بدأتْ توزّع أشعتها على ذلك المكان المكسوّ بالجمال والدهشة لترتسم أمامنا لوحةٌ ربّانية ولا أروع منها حيثُ كان الضباب يهرب من تلك الأشعة الذهبية نحو الأسفل تاركاً وراءهُ مَنْدوحة وَفسحة من الجمال تتراءى منها العديد من الوهاد والجبال والأودية التي كانت ولاتزال لتوّها تصحوُ من سباتها فيما البعض كان لايزال في غفوةٍ حميمية في بطون وثنايا تلك الجبال ينتظر بفارغ الصبر تلك الأشعة الذهبية لتوقظه من نومه ليبدأ يوم عمل نشيط لا يجبره على تركه سوى الهجوم الشرس لظلام الليل الذي لا يتركهم في منأى عنه أبداً.

مبنى مهيب

* كان هذا الجو البديع كفيلاً بأنْ يُخرجني مُرغماً لمعانقة ذلك الصباح البهيّ على سفوح جبال ريمة وكان من حظي أنّ الناس قد بدأوا يتقاطرون على سوق الجبينِ فيما الطلاب يتجهون نحو مدارسهم والحركة بدأتْ تَدُبُّ في أرجاء تلك المدينة/القرية التي يبدو أنّها ستنسلخ رويداً رويداً عن قرويّتها باتجاه المدنيّة التي ستحرمنا الكثير من ميزات هذه البلدة التي تأخذُ زائرَها مرغماً إلى أحضَان الطبيعة الوادعة.
التقطتُ بعض الصور لذلك الجو البديع والمناظر الخلاّبة وجُلتُ في أرجاء الجبين العاصمة لأرى بعض آثارها القديمة قلعة القشلة ودار الحكومة، كما كان يسمى قديماً، والذي أضحى وقت زيارتنا مركزاً للمجلس المحلي فيما كان مقر قيادة المحافظة الجديد لايزال في الطور الأخير منه وهو مبنى مهيب وفي موقع أكثر مهابةً وجمالاً وهو يقع على مشارف الجبين مطلاً على سهل تهامة.
فيما بقية المكاتب الحكومية التي مازالت في بيوت يتم إنشاء مبانٍ لها في بطون تلك الشعاب والوهاد التي ستكون معاً فيما بعد مدينة الجبين التي ستكون مدينة فعلية وعاصمة لمحافظة حقيقية في حالة تم ذلك.
ومن جميل ما يراه المرءُ في الجبين بدائيّة الحياة اليومية حيث تنتشر الحمير التي تستعمل للنقل والبقر والأغنام والماعز.. أمّا الطيور المحلّقة في السماء فترسم لوحة بديعة حين تتماهى مع الضباب في سماء الجبين في مشهد يسلب الألباب ولا يمكن رؤيته في مكانٍ ما إلاّ في الجبين التي هي اسمٌ على مسمى.

قبل الوداع

* عند الساعة الحادية عشرة ظهراً ينبهر المرءُ حين يهبط الضباب فجأةً مصافحاً الأهداب؛ناشراً ظلالهُ على كل مَن يقابله في وقت يكون المتسوقون قد بدأوا يحزمون أمتعتهم لمغادرة سوق ومدينة الجبين فيما يظل فيها فقط سكان المدينة وبعض الموظفين في تلك المكاتب الحكومية حديثة النشأة الذين تُجبرهم ظروف عملهم على البقاء وعدم المغادرة رغم ظروفهم القاسية المتمثّلة في انعدام السكن المريح فهم يسكنون وينامون ويأكلون في نفس المباني التي يستخدمونها في الصباح مكاتب حكومية ومِن الظهر تتحوّل إلى سكن ومكان للمقيل.
عند طواف مدينة الجبين كانت كل المظاهر تدلُّ على أنّها مازالت تنتمي إلى العصور السابقة وفيها جمالٌ طبيعي يأسرُ القلوب الباحثة عن الراحة والدعة في أحضان الطبيعة بعيداً عن ضجيج المدينة وصخبها المشاكس.
أخذنا عدداً من الصور وغادرنا بعد أنْ تغدينا فيها وجلسنا ساعات للمقيل على سفوح تلك الجبال مستمتعين بتلك المناظر التي تراءت لنا من قمّة جبال الجبين التي تُعدُ بحق جبيناً لكل الجبال الغربية المطلّة على سهل تهامة بل وأكثرها مهابةً وجمالاً وروعةً وإغراء.
وحين شارف النهار على الذهاب سبقناه وغادرنا الجبين منحدرين نحو الأسفل باتجاه مدينة الحديدة قبل أنْ يداهمنا الظلام ونحن في أحضان ذلك الجبل الأعجوبة الذي يستحق بحقّ مزيداً من تسليط الضوء عليه ورفد تلك المدينة الوليدة بالعديد من المرافق والاستثمارات السياحية التي تكفل لها اللحاق بركب المدنية الحديثة خاصة وأنّها تمتلك معظم المقومات التي تجعل منها منطقة سياحية من الطراز الفريد فقط إذا أُخلصتْ النوايا!!